

دعوى التجديد في علم الكلام.

Claiming innovation in theology

الدكتور: محمد مهدي لخضر بن ناصر

قسم العلوم الاسلامية - جامعة تلمسان

ملخص البحث باللغة العربية:

مثل علم الكلام جانبا هاما من الفلسفة الإسلامية، ذلك لأنه العلم المتكفل بالدفاع عن العقائد الإيمانية وإثباتها بالدليل العقلي في مواجهة المشككين والمخالفين؛ وقد ظهرت في الأزمنة الأخيرة جهود كلامية حديثة، اختلفت تأصيلات مُنظَرِها فيها -وكذا آراء الباحثين - من حيثيات مختلفة، أهمها حيثيتان:1-القبول والرد، 2- التكييف والتوصيف.

فمن جانب القبول، سعى أهله لتقديم مشروعين -وذلك بحسب اختلاف

مشاريعهم:-

الأول:يعنى بإحياء ما اندرس، وتقويم ما انحرف، وأيضا مواجهة الأفكار ومسايرة الحوادث والوقائع المتجددة، من خلال فهمها فهما صحيحا لا يخرج في مضمونه عن نصوص الشريعة ومقاصدها، الثاني: مشروع متكامل مستقل عن القديم، يتناول بمناهج جديدة ورؤى مستقبلية، بحيث لا تلتفت للقديم ولا تنظر إليه، ولا تشترك معه إلا في المصطلح.

وفي المقابل يرى الرافضون للتجديد أن إعادة بعث المباحث الكلامية، غير مفيد البتة، وهو مجرد ترف فكري، لأن البحث فيه غالبا ما يكون متأثرا بالفلسفات والنظريات اليونانية القديمة.

أما عن حيثية التوصيف والتكييف، فيتمحور الإشكال فيها حول وصف هذه الجهود الكلامية الحديثة هل هي "تجديد في علم الكلام"، أمهي "كلام جديد"، والإجابة عن هذا الإشكال يكون بحسب اتجاهاتهم في التجديد؛ فبينما يعني التجديد في علم الكلام: الحفاظ على المسائل والمناهج والتي توصف بكونها القديمة، وإدراج مسائل جديدة معاصرة؛ فإن وصف "الكلام الجديد" هو وصف يُتجاوز فيه الكلام القديمة

فكرة ومنهج ومصطلحا، ويتحدث عن علم كلام جديد يحمل فلسفة جديدة للدين ومعرفة تختلف عن العلم القديم.
الكلمات المفتاحية: علم الكلام، التجديد، الاتجاهات.

Abstract :

Theology is an important pillar of Islamic philosophy, because it is the science by which we defend and confirm faith beliefs with rational proof, in order to respond to sceptics and dissenters; And there has been a lot in our contemporary time claiming innovation in theology, and the difference between Themis due to their multiple ideologies, so researchers have to find out the truth of these claims and their backgrounds and goals.

Then, are these modern speech efforts described as "a renewal in the science of speech", or as a "new words"? Answer: It is according to their direction of renewal. Whereas renewal in theology means the preservation of the issues and methods described as old, and the introduction of new contemporary issues; The description of "new words" is a description in which we abolish old matters of kalam, an idea, methodology and terminology, and we speak of a new science of knowledge that carries a new philosophy of religion and knowledge that differs from the old science.

keywords: theology, innovation, Curricula.

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن أولى ما وُجِّهت وصرفت الهمم إلى بيانه، وأحرى ما عُنيت بتسديد قواعده ومناهجه، - فضلا عن علم الحلال والحرام - هو علم الكلام، إذ إنه أساس الشرع، وقيام أصل يردّ إليه كل فرع.

وقد تبوأ علم الكلام مكانة هامة في القرون الماضية عند الأئمة والعلماء من ذوي البصائر الرائقة، فألوه العناية الفائقة، والأهمية الراقمة، وقد تحقق - ولا زال - بفضل الله ثم به نيلُ المراد - في المعاش قبل المعاد - في الحفاظ على العقائد الإيمانية في الفترات السابقة وبعض من جوانبها الآنية.

لكن التغيير الذي حصل في شتى البلدان - خاصة بعد سقوط الخلافة العثمانية مع ما صاحب ذلك من تقدّم لافت للغرب -، حوّل المشكلات الفكرية والعقدية والكلامية إلى ظواهر تمثلت في الاستشراق والعلمانية والعولمة والقومية، وغيرها، فاستشكل كثير من الباحثين حقيقة تناولها بمناهج جدلية كالمسائل القديمة أم أنه يتعين تقديم مشروع متكامل مستقل بمناهج جديدة ورؤى مستقبلية، بحيث تسير الواقع المعاصر وتندمج فيه، وقد اصطالحوا عليه -أعني: مشروعهم - " تجديد علم الكلام" أو "علم الكلام الجديد".

وفي المقابل؛ هناك باحثون كثيرون أن إعادة بعث المباحث الكلامية، هو مجرد ترف فكري، لأن البحث فيه غالبا ما يكون متأثرا بالفلسفات والنظريات اليونانية القديمة، ثم كيف يكون المبحث الكلامي فرصة للتجديد فيه مع أنه خطاب جدلي دفاعي، فهو ليس بمنهج عقلي متكامل يستحق أن تصرف إليه المساعي، - وقد قالوا قديما ما لحنين الماضي من داع -.

ومن الجلي أيضا عند بعض هؤلاء: أن الخطاب الديني المعاصر استبدل منذ مطلع الستينيات بمباحث الكلام حول الإعجاز العلمي، والذي هو أقدر على الدفاع عن الدين والعقيدة، وهو أيضا أظهر وأدعى لأن تتكيف نفس الواقف عليه أكثر مما إذا نظر إلى المسائل الكلامية الجديدة وهي تعرض وتُتناول بمناهج قديمة.

وبناء على ما سلف ذكره، ارتأيت أن يكون عنوان هذه المداخلة موسوما بما يلي:

دعوى التجديد في علم الكلام:

وقد قصدت تناول جزئياته بهوى البحث والمحاضرة، محاولا في ذلك استحلاء جنى المناظرة، بغية الالتحاق برهطهم لتجلية مذهبهم دون الانتظام في سِمْطهم. أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تتمثل الأهمية والأسباب فيما يلي:

أولاً: اشتداد الحاجة للبحث في علم الكلام باعتباره أشرف العلوم وأفضلها؛ يقول الأمدي: "وأشرف العلوم إنما هو العلم الملقب بعلم الكلام، الباحث عن ذات واجب الوجود وصفاته وأفعاله ومترقاته، إذ شرف كل علم إنما هو تابع لشرف موضوعه الباحث عن أحواله العارضة لذاته ولا محالة أن شرف موضوع هذا العلم يزيد على شرف كل موضوع ويتقاصر عن حلول ذراه كل موجود مصنوع"، انظر: (غاية المراد في علم الكلام، ص4).

ثانياً: يمثل علم الكلام جانبا هاما من الفلسفة الإسلامية، ذلك لأنه العلم المتكفل بالدفاع عن العقائد الإيمانية وإثباتها بالدليل العقلي في مواجهة المشككين والمخالفين، لذا كان البحث فيه من الأهمية بمكان.

ثالثاً: كُتِّرت دعاوى التجديد في علم الكلام وفق إيديولوجيات متعددة بمناهج مختلفة، وهذه الكثرة استوجبت الوقوف على حقيقة هذه الدعاوى وخلفياتها وغاياتها. رابعاً: على الرغم من أن الأمر لا يبدو ضمن حقل اختصاصي العلمي، إلا أنه يقع ضمن اهتمامات فضولي المعرفي من جانب؛ ومن جانب آخر، فإن مسائل علم الكلام وتفرعاته وسجلاته يشكل جانبا مهما من علم أصول الفقه. الإشكالية:

إذا كان علم الكلام في قرون مضت قام بدور جوهري في المجال الحجاجي العقائدي، فهل يمكن بعث هذا العلم اليوم من جديد - وذلك في خضم التحولات التي يشهدها الحقل المعرفي الديني - بحيث يواكب حركة الفكر المعاصر؟ أم أن التجديد فيه يعتبر من الترف الفكري الذي لا طائل منه؟.

الخطة المتبعة:

واشتملت الخطة على مقدمة، تلاها مبحث الأول حول حقيقة مصطلحي "التجديد" و"علم الكلام" في مطلبين؛ بينما استأثر المبحث الثاني ببيان اتجاهات التجديد المعاصرة في علم الكلام ونقدها في مطلبين أيضاً، الأول يتعلق باتجاهات

المختصين في العلوم الشرعية، أما الآخرفقد تُنَوَّل فيه التجديد من منظور المناهج الإنسانية وفلسفات التأويل، وأخيرا الخاتمة: وفيما تم عرض أهم النتائج المتوصل إليها باختصار.

المنهج المتبع:

سلكت في هذا البحث منهج وصفي بأحد شقيه، وأعنيما تعلق بدراسات الحالات أو الظواهر، - لأن التجديد في علم الكلام يعتبر ظاهرة -، وقد تخلل هذه الدراسة كثير من التحليل والمناقشة والنقد حسب ما يقتضيه المنهج، كما أعرضت عن أداة الاستقراء بحيث لم أتناول جميع الجهود التجديدية، واقتصرت على أهمها، لأنها في الغالب ترجع على مشرب واحد لا مشارب مختلفة.

وفي ختام هذا المطاف: أشكر الله عز وجل على ما من ووفق وهدي، كما أحمده بجميع المحامد، أقصى ما يبلغه الحامد، على ما يسر من تذليل عقبات هذا البحث بضروب من لطفه سبحانه وتعالى، وأسأله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وأن ينفع به كاتبه وقارئه والناظر إليه.

وستشعر الآن - والله الحمد - في عرض تفاصيل هذه الورقة البحثية.

المبحث الأول: حقيقة مصطلحي "التجديد" و"علم الكلام".

جرت العادة عند الباحثين بتناول الحقائق والماهيات في المباحث الأولى، ونحن همنا لن نحيد عن هذه الجادة، لذلك سنتعرض في هذا المبحث لحقيقة مصطلحي التجديد وعلم الكلام، وذلك في مطلبين.

المطلب الأول: تعريف التجديد.

أولا: في اللغة.

الجديد في اللغة يطلق على معنيين:¹

أ: هو المقطوع، يقال ملحفة جديد وجديدة حين جدها الحائك، أي: قطعها.

ب: نقيض الخلق، يقال: جدّ الثوب والشيء يجد -بالكسر- أي: صار جديدا.

ثانيا: في الاصطلاح.

¹ لسان العرب لابن منظور، ج3ص111

يعتبر مفهوم التجديد من أكثر المفاهيم التي تنازعها التيارات الثقافية والفكرية المختلفة، لكننا هنا سنقتصر على بيان معناه عند المسلمين من حيث الجملة، ثم ما يقابل هذا المعنى عند الغربيين.

أ: التجديد عند المسلمين.

فالتجديد عند المسلمين من حيث الجملة هو اجتهاد في المسائل المتغيرة، ودون التعرض للأصول الثابتة، وذلك بإحياء ما اندرس، وتقويم ما انحرف، فضلاً عن مواجهة الحوادث والوقائع المتجددة. من خلال فهمها فهما صحيحا لا يخرج في مضمونه عن نصوص الشريعة ومقصودها.

ومستندهم في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها".¹

ويترتب على هذا أن مصطلح التجديد لا ينطبق على من يقف عند فروع الدين - وهو ما يعرف بالمقلد المحض -، ولا على من يرفض أصول الدين وفروعه - وهذا هو عين التغريب -.

ب: التجديد عند الغربيين.

لا يخفى أن التجديد عند الغربيين هو نتيجة وإفراز لصراع حاد حصل بين الكنيسة من جانب، وسلطة المعرفة والعلم والعقل من جانب آخر، مما دفع الأخيرة للاتجاه نحو تجاوز كل النظريات الدينية تحت مسمى التجديد.

ويرتكز مفهوم التجديد في الفكر الغربي على أساسين:

1: لا تُرى عملية التجديد إلا بمنظور التكيف في إطار من نسبية القيم وغياب العلاقة الواضحة بين الثابت والمتغير؛ إذ تعتبر كل قيمة قابلة للإصابة بالتبدل والتحول. بينما تقوم عملية التجديد عند المسلمين على أساس التمييز بين الأصل والفرع، وبين ما هو ثابت وما هو متغير.

2: يغلب على مفهوم التجديد في الفكر الغربي عملية التجاوز المستمرة للماضي أو حتى الواقع الراهن؛ من خلال مفهوم الثورة والذي يشير إلى التغيير الجذري والانقلاب على الوضع السابق.

¹ سنن أبي داود، ك: الملاحم، ب: ما يذكر في قرن المائة، ر: 3740، 109/4. وهو حديث صحيح، انظر: مختصر المقاصد الحسنة للزرقاني، ص 215.

ج: المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي:

إن التجديد عند الغربيين يناسب المعنى اللغوي الأول - القطع- لأنه يعني القطيعة مع التراث، بينما عند المسلمين يناسب المعنى اللغوي الثاني، لأنه يعني إعادة بعث علم الكلام وتجديد ومسائله.
المطلب الثاني: تعريف علم الكلام.
أولاً: في اللغة.

الكلام معروف، وهو القول، وقيل: الكلام ما كان مكتفياً بنفسه وهو الجملة، والقول ما لم يكن مكتفياً بنفسه، وهو الجزء من الجملة¹.

ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول²:

إجماع الناس على أن يقولوا القرآن كلام الله، ولا يقولوا القرآن قول الله، فيعبر لذلك بالكلام الذي لا يكون إلا أصواتاً تامة مفيدة، ومما يدل أيضاً على أن الكلام هو الجمل المترتبة في الحقيقة، قول كثير:

لويسمعون كما سمعت كلامها *** خروا لعزة ركعاً وسجوداً

فمعلوم أن الكلمة الواحدة لا تشجي ولا تحزن ولا تتملك قلب السامع، وإنما ذلك فيما طال من الكلام وأمتع سامعيه لعذوبة مستمعه ورقة حواشيه.

وقال الجوهري: "الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير، والكلم لا يكون أقل من ثلاث كلمات"³.

ثانياً: الكلام في الاصطلاح.

هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه⁴.

وموضوعه: معرفة الباري تعالى بوحدانيته وصفاته، ومعرفة الرسل بآياتهم وبياناتهم، وبالجملة: كل مسألة يتعين الحق فيها بين المتخاصمين فهي من الأصول⁵.

وسبب تسميته بعلم الكلام تتردد بين ثلاثة أمور¹:

¹ لسان العرب لابن منظور، ج10 ص523.

² المصدر نفسه، ج10 ص523-524.

³ الصحاح للجوهري، ج5 ص2023.

⁴ كشف اصطلاحات الفنون للهانوي، ج1 ص29.

⁵ شرح العقائد النسفية للفتازاني، ص10؛ الملل والنحل للشهرستاني، ج1 ص41.

الأول: إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هي أن كلام الله المتلو حادث أو قديم.

الثاني: لأن مبناه الدليل العقلي، وأثره يظهر من كل متكلم في كلامه وقلما يرجع فيه إلى النقل، إلا بعد تقرير الأصول الأولى، ثم الانتقال منها إلى ما هو أشبه بالفرع عنها، وإن كان أصلاً لما يأتي بعدها.

الثالث: وإما لأنه في بيانه طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبينه مسالك الحجة في علوم أهل النظر، وأبدل المنطق بالكلام لتفرقة بينهما. ثم إن علم الكلام تعتربه الأحكام الخمسة - كما نص على ذلك الإمام أبو حامد - فهو باعتبار منفعة في وقت الانتفاع: مباح، أو مندوب إليه، أو واجب كما يقتضيه الحال، وهو باعتبار مضرتة - مضرتة تتمثل في إثارة الشبهات وتحريك العقائد وإزالتها عن الجزم - في وقت الاستضرار حرام.²

المبحث الثاني: اتجاهات التجديد المعاصرة ونقدها.

وصف الجهود الكلامية الحديثة في العالم العربي والإسلامي بأنها "تجديد في علم الكلام"، أو كونها "كلاماً جديداً"، يكون بحسب اتجاهاتهم في التجديد: فبينما يعني التجديد في علم الكلام الحفاظ على المسائل والمناهج والتي توصف بكونها القديمة، وإدراج مسائل جديدة معاصرة. أما وصف "الكلام الجديد" فهو وصف يتجاوز فيه الكلام القديمة فكرة ومنهجاً ومصطلحاً، ويتحدث عن علم كلام جديد يحمل فلسفة جديدة للدين ومعرفة تختلف عن العلم القديم.

واتجاهات التجديد المعاصرة يمكن حصرها في مسلكين، المسلك الأول: التجديد من منظور الشرعيين، أما الثاني: فهو التجديد من منظور هرمنيوطيقي -فلسفة التأويل-، وسنعالج ذلك في مطلبين.

المطلب الأول: اتجاه المختصين في العلوم الشرعية.

المختصون في الدراسات الشرعية في باب التجديد كانوا على ضربين: الأول يعني بتجديد علم الكلام، والثاني: بعلم كلام جديد -أي: على النحو الذي بيناه -.

¹ رسالة التوحيد لمحمد عبده، ص 5.

² قواعد العقائد لأبي حامد الغزالي، ت: موسى محمد علي، ص 99.

ثم إن أهل الضرب الأول على طائفتين:

الطائفة الأولى:

محاولتها التجديدية تعتبر هي الأولى في القرن التاسع عشر، وكانتهلى يد الإمام محمد عبده في كتابه رسالة التوحيد. وقد أراد إعطاء رؤية وبعده تجديدي لمسائل التوحيد مع البقاء في الحيز الكلامي.

ويظهر ذلك جليا في إثباته لصفة الاختيار لله، وجعلها من أحكام الواجب -أي: مما يجب الله - مع صفتي البقاء والقدم ونفي التركيب، وهذا خلاف ما درج عليه جمهور المتكلمين.¹

ثم إن هاجس محمد عبده في دراسته قضايا ومسائل العقيدة والتوحيد كان هاجسا إصلاحيا تغييريا، ولم يكن هاجسا معرفيا محضا، ولذا كثيرا ما كان يطرح قضايا فكرية إصلاحية ويجاول الإجابة عنها في رسالته التوحيدية، من ذلك قوله: "... يقول قائلون إذا كان الإسلام إنما جاء لدعوة المختلفين إلى الاتفاق وقال في كتابه إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء، فما بال الملة الإسلامية قد مزقتها المشارب وفرقت بين طوائفها المذاهب...".²

الطائفة الثانية:

سيطرت عليها النظرة الموروثة عن قداماء الحنابلة المعروفين برفضهم الشديد للمباحث الكلامية؛ وهؤلاء يرون أن القدر المسموح به في مجال التجديد يقتصر على تخليص العقيدة الإسلامية وتنقيتها من عبارات المتكلمين.³

وهذا الصنف يحكم على التراث الكلامي بأنه ضلال وابتداع، وقرع للأسماع، وهم في نفس الوقت يدعون للرجوع إلى عصور الصحابة، - إذ هو مما ينبغي أن يصرف إليه يراع الكتابة -، ويروج لهذه الدعوى الآن أصحاب الخطاب السلفي اليوم.⁴

¹ رسالة التوحيد لمحمد عبده، ص22.

² المصدر نفسه، ص101.

³ التجديد في الفكر الإسلامي لعبدنان محمد أمانة، ص16.

⁴ هو أكثر المناهج شدة على علم الكلام قديما وحديثا، وانتقل أهله من منطق التحفظ أو تخطئة المخالف إلى تفسيقه وتبديعه في كثير من الأحيان، كما جعلت من المنظومة التوحيدية - عبر مسلك الجرح والتعديل - منهجها في الإصلاح.

والحقيقة أن التخليص والتنقية في علم الكلام تحديدا لا تعتبر تجديدا؛ وفي كل الأحوال فإن لهذا الاتجاه مبرراته من جهة أن هذا المصطلح تم استغلاله من قبل بعض الحدائين التغريبيين للعبث بأحكام الإسلام ونصوصه، وهي مبررات معقولة ومفهومة؛ ولكن هذه الكلامية الجديدة لا تعيننا ههنا في شيء، لأنها باحتكارها لمفهوم السلفية والفرقة الناجية ومنطق الصواب صارت أكثر تقليدية وانغلاقا من علم الكلام وأهله.

أما الضرب الثاني فأهله أيضا سلكوا مناهج مختلفة.

أ: منهج السيد قطب.

يعادي السيد قطب المباحث الكلامية، ويرى فيها مجرد ترف فكري متأثر بالفلسفات والنظريات المستوردة، لذلك - من وجهة نظره - فالتجديد ينبغي أن يكون في بنية العلم وأساساته، ودعا إلى تفسير شامل للوجود، تفسير يقرب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التي نتعامل معها وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق: حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية - والتي تشتمل على حقيقة الكون وحقيقة الحياة وحقيقة الإنسان - ثم الوقوف على حقيقة مركزية الإنسان في الوجود الكوني وغاية وجوده الإنساني.

واتجه أيضا إلى إعطاء مفهوم التوحيد بعدا ودلالة نضالية، وأطلق عليه التوحيد المطلق الكامل الشامل الحاسم الدقيق¹.

ولا يخفى أن المسائل التي تكلم عنها السيد قطب وحاول بلورة علم الكلام الجديد ومحورته حولها أصبحت تعالج في كثير من الأحيان ضمن قضايا الفكر الإسلامي. ب: وحيد الدين خان.

لقد حاول وحيد الدين خان استبدال علم الكلام بأدبيات أو مباحث الإعجاز العلمي والتي اعتبرها أقدر على الدفاع عن الدين والعقيدة. وقد بدا هذا النهج جليا في كتابه الإسلام يتحدى إذ يقول في مقدمته: "وإني لأشعر بأن المضمار الفسيح الذي هيأته الدراسات العلمية الحديثة لإثبات الدين هو تصديق لما جاء في القرآن في سورة النمل،

¹ خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للسيد قطب، ص 197.

وقل الحمد لله سيرىكم آياته فتعرفونها، وهذا الكتاب محاولة لاستغلال الإمكانيات الجديدة لصالح الدين بطريقة منظمة"¹.

ج: اتجاه شبلي النعماني.

وهو اتجاه يعنى تحويل المسائل الكلامية من العقيدة إلى الجوانب التاريخية والحضارية والأخلاقية والاجتماعية للدين، لأن الباحثين الأوروبيين يعتبرون الدليل الأقوى على بطلان الدين هي مسائل تعدد الزوجات، والطلاق والأسرى والجهاد، وبناء على ذلك سيدور البحث في علم الكلام الجديد حول مسائل من هذا القبيل، حيث تعتبر هذه المسائل من اختصاص علم الكلام الجديد، ومن المهم جدا أن تقدم بأسلوب بسيط واضح بعيد عن لغة المتكلمين.²

وهو في هذا أشبه بالجدل الإسلامي مع شبهات المستشرقين، فما يدعوه كلاما جديدا ليس إلا دفع الشبهات العصرية، مما يجعل الوصف بأنه يؤسس لعلم كلام جديد غير دقيق؛ ومنهجه في الحقيقة أقرب إلى الضرب الأول منه للثاني – فهو يتفق مع الثاني في الشكل فقط دون المضمون.-

د: طه عبد الرحمن.

يرى أن موضوع علم الكلام الجديد يكون المسائل التي استحدثت في المذاهب الفكرية، أو تلك التي أنشأها تطور العلم الحديث وتقلب الأساليب التقنية، يقول: "إذا تبين أن العقلانية الكلامية تنبني على مبدا الفعل والمفاعلة فإن علم كلام جديد يصبح السبيل النافع والجاد لتقويم النزعات الفكرية والاختيارات المنهجية المستجدة..."³. في الوقت الذي بلور خطأ منهجيا لدراسة الكلام الجديد عبر تأكيده على المنهج المناظراتي والحواري.

المطلب الثاني: التجديد من منظور المناهج الإنسانية وفلسفات التأويل.

وهنا لا بد من الإشارة إلى رؤية "حسن حنفي" الذي أراد من خلالها إعادة بناء علوم العقيدة في عمله الموسوعي الجدلي "من العقيدة إلى الثورة"، فذهب فيه إلى محاولة

¹ الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان، ص8.

² علم الكلام الجديد لشبلي النعماني، ص182.

³ في أصول الحوار وتجديد علم الكلام لطة عبد الرحمن، ص157.

بناء لاهوت تحرير إسلامي على غرار لاهوت التحرير المسيحي الذي عرفته أمريكا اللاتينية، لأنه يرى أن أزمة المسلمين تمثل في تغييره للإنسان في المنظومة الكلامية¹. والحقيقة أنه لا يمكن مقارنة ما يحصل مع المسيحية مع الدين الإسلام، فلم يشهد الإسلام كما شهدت المسيحية طبقة رسمية مخصصة من رجال الدين تحتكر تفسير وفهم النصوص المقدسة، بل ترك الإسلام باب تفسيرهما، وفهمهما مفتوحاً أمام كل من استكمل شرائط الاجتهاد كفاءة العلمية اللازمة لمثل هذا التفسير والفهم، وما تعدد المدارس الفكرية والمذاهب الدينية في وجه من الوجوه إلا نتيجة لهذه الحرية في فهم النصوص الدينية؛ هذا بالإضافة إلى أن الحضارة الإسلامية لم تشهد حالة العداء الشديد للعلم واضطهاد العلماء، ولم يعرف تاريخها أبداً صكوك الغفران، والحرمان التي كان يصدرها زعماء الكنيسة.

كما لا يصح القول إن ملمح الأزمة الوحيد هو غيبة مبحث الإنسان عن المدونات الكلامية القديمة، والدعوة للتمكين له في أطروحات الكلام الجديد، فكأنه انتقالفقط من الثيولوجيا الإسلامية نحو الثيولوجيا المسيحية، أو من الثيولوجيا إلى الأنثروبولوجيا فقط.

الخاتمة:

وفيها أهم النتائج المتوصل إليها باختصار:

أولاً: لا تُرى عملية التجديد في الفكر الغربي إلا بمنظور التكيف في إطار من نسبية القيم وغياب العلاقة الواضحة بين الثابت والمتغير؛ إذ تعتبر كل قيمة قابلة للإصابة بالتبدل والتحول، بينما تقوم عملية التجديد عند المسلمين على أساس التمييز بين الأصل والفرع، وبين ما هو ثابت وما هو متغير.

ثانياً: سيطرت على مختلف الطوائف والتيارات اليوم النظرة الموروثة عن قدماء الحنابلة المعروفين برفضهم الشديد للمباحث الكلامية؛ وهؤلاء يرون أن القدر المسموح به في مجال التجديد يقتصر على تخليص العقيدة الإسلامية وتنقيتها من عبارات المتكلمين.

¹ من العقيدة إلى الثورة لحسن حنفي، ج3 ص75.

وهذا الصنف يحكم على التراث الكلامي بأنه ضلال وابتداع، وقرع للأسماع، وهم في نفس الوقت يدعون للرجوع إلى عصور الصحابة، - إذ هو مما ينبغي أن يصرف إليه يراع الكتابة -، ويروج لهذه الدعوى الآن أصحاب الخطاب السلفي اليوم. والحقيقة أن التخليص والتنقية في علم الكلام تحديدا لا تعتبر تجديدا؛ وفي كل الأحوال فإن لهذا الاتجاه مبرراته من جهة أن هذا المصطلح تم استغلاله من قبل بعض الحدائين التغريبيين للعبث بأحكام الإسلام ونصوصه، وهي مبررات معقولة ومفهومة؛ ولكن هذه الكلامية الجديدة لا تعيننا ههنا في شيء، لأنها باحتكارها لمفهوم السلفية والفرقة الناجية ومنطق الصواب صارت أكثر تقليدية وانغلاقا من علم الكلام وأهله.

ثالثا: كما لا يمكن إغفال اتجاهات أخرى نحو التجديد أهمها:

أ: منهج السيد قطب، والذي دعا إلى تفسير شامل للوجود، تفسير يقرب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التي نتعامل معها وطبيعة العلاقات والارتباطات بين هذه الحقائق: حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية - والتي تشتمل على حقيقة الكون وحقيقة الحياة وحقيقة الإنسان- ثم الوقوف على حقيقة مركزية الإنسان في الوجود الكوني وغاية وجوده الإنساني.

ولا يخفى أن المسائل التي تكلم عنها السيد قطب وحاول بلورة علم الكلام الجديد ومحورته حولها أصبحت تعالج في كثير من الأحيان ضمن قضايا الفكر الإسلامي.

ب: اتجاه شبلي النعماني.

وهو اتجاه يعنى تحويل المسائل الكلامية من العقيدة إلى الجوانب التاريخية والحضارية والأخلاقية والاجتماعية للدين، لأن الباحثين الأوروبيين يعتبرون الدليل الأقوى على بطلان الدين هي مسائل تعدد الزوجات، والطلاق والأسرى والجهاد، وبناء على ذلك سيدور البحث في علم الكلام الجديد حول مسائل من هذا القبيل، حيث تعتبر هذه المسائل من اختصاص علم الكلام الجديد، ومن المهم جدا أن تقدم بأسلوب بسيط واضح بعيد عن لغة المتكلمين.

وهو في هذا أشبه بالجدل الإسلامي مع شهيات المستشرقين، فما يدعوه كلاما جديدا ليس إلا دفع الشهيات العصرية، مما يجعل الوصف بأنه يؤسس لعلم كلام جديد غير دقيق؛ ومنهجه في الحقيقة أقرب إلى الضرب الأول منه للثاني - فهو يتفق مع الثاني في الشكل فقط دون المضمون-.

رابعاً: فيما يتعلق بقضايا التجديد من منظور المناهج الإنسانية وفلسفات التأويل كان لا بد من الإشارة إلى رؤية "حسن حنفي" الذي أراد من خلالها إعادة بناء علوم العقيدة في عمله الموسوعي الجدلي "من العقيدة إلى الثورة"، فذهب فيه إلى محاولة بناء لاهوت تحرير إسلامي على غرار لاهوت التحرير المسيحي الذي عرفته أمريكا اللاتينية - للإشارة لاهوت التحرير المسيحي فشل فشلاً ذريعاً -، لأنه يرى أن أزمة المسلمين تمثل في تغييبه للإنسان في المنظومة الكلامية.

والحقيقة أنه لا يمكن مقارنة ما يحصل مع المسيحية مع الدين الإسلام، فلم يشهد الإسلام كما شهدت المسيحية طبقة رسمية مخصوصة من رجال الدين تحتكر تفسير وفهم النصوص المقدسة، بل ترك الإسلام باب تفسيرهما، وفهماً مفتوحاً أمام كل من استكمل شرائط الاجتهاد كفاءة العلمية اللازمة لمثل هذا التفسير والفهم، وما تعدد المدارس الفكرية والمذاهب الدينية في وجهه من الوجوه إلا نتيجة لهذه الحرية في فهم النصوص الدينية؛ هذا بالإضافة إلى أن الحضارة الإسلامية لم تشهد حالة العداء الشديد للعلم واضطهاد العلماء، ولم يعرف تاريخها أبداً صكوك الغفران، والحرمان التي كان يصدرها زعماء الكنيسة.

كما لا يصح القول إن ملمح الأزمة الوحيد هو غيبة مبحث الإنسان عن المدونات الكلامية القديمة، والدعوة للتمكين له في أطروحات الكلام الجديد، فكأنه انتقال فقط من الثيولوجيا الإسلامية نحو الثيولوجيا المسيحية، أو من الثيولوجيا إلى الأنثروبولوجيا فقط.

خامساً: هناك محاولات تجديدية كبيرة عند الشيعة لكن فكرة التجديد تقوم عند هؤلاء على أساس نقد علم الكلام السني القديم، يصدر أصحابه في الغالب عن نزعة غربية في التعامل مع النصوص الشرعية، تنبني على أسس هرمنيوطيقية.

سادساً: حاصل الأمر أن المشروع الإصلاحي المرتقب لن يتحقق بالرجوع إلى الإشكالات الكلامية القديمة، أو عن طريق تطبيقات العلوم الإنسانية التي لم يعد ينظر إليها كمناهج يقينية موضوعية على غرار العلوم التجريبية، بل هي معارف تأويلية يمتزج فيها الدارس بالظاهرة المدروسة والذات بالموضوع.

وفي الأخير أحمد الله - كما في البدء - بجمع المحامد، أقصى ما يبلغه الحامد، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- الإسلام يتحدى لوحيد الدين خان، ط مكتب الرسالة.
- 2- التجديد في الفكر الإسلامي لعبدنان محمد أمانة، ط دار ابن الجوزي.
- 3- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته للسيد قطب، ط دار الشروق.
- 4- دراسات في علم الكلام الجديد لحسن يوسفیان، ترجمة: محمد حسن زراقت، ط مكتبة مؤمن قريش.
- 5- رسالة التوحيد لمحمد عبده، ط دار الكتاب العربي.
- 6- سنن أبي داود، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط المكتبة العصرية بيروت.
- 7- شرح العقائد النسفية للتفتازاني. ط مكتبة المثنى ببغداد.
- 8- الصحاح للجوهري، ط4، دار العلم للملايين.
- 9- علم الكلام بين الأصالة والتجديد لمحمد خير حسن العمري. المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، العدد(3/أ)، المجلد الخامس.
- 10- علم الكلام الجديد لشبلي النعماني، ط الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- 11- في أصول الحوار وتجديد علم الكلام لطفه عبد الرحمن، ط المركز الثقافي العربي.
- 12- قواعد العقائد لأبي حامد الغزالي، ت: موسى محمد علي، ط عالم الكتب.
- 13- كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، ت: علي دحروج، ط مكتبة لبنان.
- 14- لسان العرب لابن منظور، ط3، دار صادر ببيروت.
- 15- مختصر المقاصد الحسنة للزرقاني، ت: محمد بن لطفي الصباغ، ط المكتب الإسلامي.
- 16- الملل والنحل للشهرستاني، ط مؤسسة الحلبي.
- 17- من العقيدة إلى الثورة لحسن حنفي. ط مكتبة طريق العلم.